المجلة اللبنانية للعلوم والتكنولوجيا
المجلد (١٠) العدد (٢)
الإصدار الحادي عشر
(١-١٨) ٢٠٢٥

الحواضر الصحراوية الموريتانية قبل التراجع (ولاتة نموذجا) قراءة في المكانة الاقتصادية لحاضرة ولاتة من النشأة حتى منتصف القرن ١٣ه— ١٩م

This work is licensed under a Creative Commons Attribution-NonCommercial 4.0 International License.

د. الطيب بلاه حمودي

جامعة نواكشوط، موريتانيا

نشر إلكترونياً بتاريخ: ١ أبريل ٢٠٢٥م

الملخص

شهد المجال الصحراوي المعروف اليوم بموريتانيا المراكز الحضرية منذ فترات قديمة تعود إلى حقب ما قبل التاريخ، وعبر الفترات التاريخية المختلفة شهدت المنطقة ظهور العديد من النماذج العمرانية التي كانت لها بصماتها في تاريخ المنطقة ومجالها الإقليمي، كما عرف المجال الصحراوي الموريتاني نماذج مختلفة من المراكز العمرانية النشطة خلال الفترتين الوسيطة والحديثة، مثل: ولاتة – ودان — تيشيت — شنقيط، وقد استطاعت هذه الحواضر أن تحتل مكانة اقتصادية وثقافية هامة مكنتها من لعب أدوار هامة في مجالها الإقليمي، ويسعى هذا البحث الذي بين أيدينا إلى التعرف على الإرث الحضري في المجال الصحراوي المعروف اليوم باسم موريتانيا، كما يسعى إلى إظهار المكانة الاقتصادية التي كانت تحتلها الحواضر الصحراوية الموريتانية، وقد أخذنا حاضرة ولاتة كمثال معبر عن المكانة الاقتصادية التي عرفت بها هذه الحواضر، وذلك من النشأة حتى بداية القرن ١٣ه — ١٩م .

الكلمات المفتاحية: موريتانيا، حواضر صحراوية، ولاتة، تجارة صحراوية.

Abstract

The desert area known today as Mauritania has known urban centers since ancient times back to prehistoric times, and throughout different historical periods; The region witnessed the emergence of many urban models that left their mark on the history of the region and its regional scope.

The Mauritanian desert area also knew different models of active urban centers during the midieval and

modern periods, such as: Walata - Ouadane -Tichit - Chinguetti .These cities were able to occupy a high economic and cultural position that enabled them to play important roles in regional fields. This research at hand seeks to identify the cultural heritage in the Mauritanian field, along with showing the economic and position occupied by the Mauritanian desert cities We took the city of Walata as an expressive example of the economic position that these cities were known for, from the establishement till the beginning of the 13th century AH - 19th century AD.

Keywords : Mauritania, Desert cities, Walata, Desert trade.

*** المقدمة**

شهد المجال الجغرافي المعروف اليوم باسم موريتانيا ظهور العديد من المراكز العمرانية الهامة التي عبرت عن مرحلة من التطور الحضاري الذي عرفته المنطقة، وقد استطاعت هذه الحواضر التي كانت في البداية مراكز تجارية؛ أن تلعب أدوارا اجتماعية وثقافية هامة، عكست مدى المكانة السامقة التي احتلتها، وقد ذاع صيت هذه الحواضر باعتبارها أهم المدن القافلية التي عرفتها منطقة الغرب الإفريقي عبر تاريخها، حيث إنه خلال مراحل ازدهارها؛ شهدت المنطقة نهضة علمية هامة تنضاف إلى النهضة الاقتصادية التي عُرفت بها، وقد كانت تلك الحواضر قبلة لعديد الهجرات البشرية المختلفة، ــ دعاة ، علماء ، مصلحين ... ــ سواء من الشمال الإفريقي، أو من بلاد السودان، وقد كانت عوامل نهضة وقوة المدن القافلية الموريتانية ترتكز على موقعها الإستراتيجي الذي أكسبها قوة اقتصادية هامة ألقت بظلالها على مختلف مناحي الحياة فيها، ولعل أهم الحواضر الصحراوية الموريتانية التي خلدت بصماتها في المجالين الاقتصادي والثقافي في المنطقة، هي الحواضر الأربعة المعروفة (ولاتة – ودان – تيشيت– شنقيط) .

لقد استطاعت هذه الحواضر الأربع؛ أن تترك بصماتها في الميادين الثقافية والعلمية من خلال نشر الثقافة الإسلامية والعربية حتى فاقت قريناتها في مجالها الإقليمي، وحتى في الأقاليم المجاورة ، ومن خلال هذا البحث الذي بين أيدينا سنحاول التعرف على المكانة الاقتصادية التي كانت تحظى بها المدن القافلية الموريتانية من خلال حاضرة ولاتة، التي نعتبرها مثالا حيا يمكن لاستدلال به على المكانة الاقتصادية السامقة التي كانت تحتلها الحواضر الصحراوية الموريتانية قبل التراجع؛ وذلك من النشأة وحتى منتصف القرن ١٣ه — ١٩م، فكيف يمكن التعرف على المسار التاريخي للإرث العمراني في المجال الموريتاني ؟ وما هي مقومات المكانة الاقتصادية لحاضرة ولاتة؟ وكيف تجلت تلك المكانة؟

*** تاريخ الإرث الحضري في المجال الموريتاني (أودغست ولاتة نموذجا)**

عرف المجال المعروف اليوم باسم موريتاني المراكز الحضرية منذ فترات قديمة تراوحت بين كثافة الحواضر والقرى أحيانا، وندرتها أحيانا أخرى، حسب العصور وتبعا للظروف والتحولات التي عرفتها المنطقة، مثل فترات الجفاف وندرة

الماء والفوضى الأمنية، وذلك منذ فترات ما قبل التاريخ[1] مرورا بالعصور القديمة وحتى الفترة الوسيطة[2] ، وعليه فإن علاقة الصحراء الموريتانية بالعمران البشري ليست بالأمر الجديد بل تعود تلك العلاقة إلى آماد زمنية سحيقة[3] ، حيث شهدت الفترة الوسيطة ظهور الكثير من التجمعات العمرانية في المنطقة، وهو ما نرى أنه ناتج عن ازدهار العلاقات التجارية بين الصحراء وجنوبها وشمالها ابتداء من القرن ٨م، وشواهد ذلك ظهور حواضر كثيرة عمت أرجاء المنطقة تقريبا، وكانت مواقع هذه الحواضر غالبا ما تكون على ممر القوافل التجارية وفي الأقاليم التي توفر مساحات خضراء ونقاط مياه تساعد على بقاء المواشي وخاصة الجمال[4] ، وقد استطاعت تلك الحواضر بما وفرته من وسائل عيش وفرص استقرار جيدة أن تجذب سكانا تجاوزوا الآلاف في الحاضرة الواحدة[5] ، وكان من أشهر الحواضر التي بدأت في الظهور خلال هذه المرحلة من تاريخ الصحراء (آبير، أودغست، كمبي صالح، آزوكي، تيشيت، ولاتة، ودان...إلخ) ، كما ذكرت المصادر العربية الوسيطة حواضر ومراكز عمرانية كانت منتشرة على طول الطرق التجارية الرابطة بين شمال وجنوب القارة لم يعد بالإمكان تحديد مواقعها، وذلك لكونها اندثرت منذ فترات قديمة مثل (آزقا- تيماماناوت- وارتنني- بانكلابين- مدوكن- قمنورية ...إلخ) بالإضافة إلى التجمعات البشرية التي عرفتها المنطقة الغربية الساحلية المحاذية لطول الشاطئ الأطلسي المطل على الصحراء، حيث إن مناطق آفطوط الساحلي من شمال موقع نواكشوط الحالي حتى مصب النهر الصنهاجي جنوبا، تكاد تكون مغطاة ببقايا آثار الاستقرار البشري[6] "... وأكثر آثار العمران في تلك المنطقة تعود إلى

[1]Mohamed ould Khattar, Préhistoire Du Sud-est Mauritanien, Le Dhar Tagant, Dossiers et Recherches, sur l'Afrique,NO2, , p, 131

[2]- ولد الحسين الناني، صحراء الملثمين، دراسة لتاريخ موريتانيا وتفاعلها مع محيطها الإقليمي خلال العصر الوسيط، منتصف القرن ٢ه/٨م إلى نهاية القرن ٥ه/١١م، دار المدار الإسلامي، ط١، بيروت، لبنان، ٢٠٠٧، ص ٣١٥

[3]- تحولات المدينة الصحراوية الجزائرية، ج١، مجموعة باحثين، مركز البحث في العلوم الإسلامية والحضارة، الأغواط، الجزائر، ص ١٢

[4]Lhote (H.) , "le cheval et le chameau dans le peintures et gravires rupestres du sahara " In: Bulltin de l'institut fraçais de l'afrique noire,N° 15, 1953, pp. 1138-1228.

[5] - ولد الحسين الناني، المرجع السابق، ص، ٣١٦

[6] - راجع حول هذا الموضوع خلاصات الأبحاث الأركيولوجية حول الموضوع :

_ فيرني روبير وآخرين، الأركيولوجيا في إفريقيا الغربية الصحراء والساحل" ترجمة ولد محمد نافع بوبه، جامعة نواكشوط، ٢٠٠٢.

_ بوبه وفيرني، الأركيولوجيا الموريتانية في متحف نواكشوط، هيئات مختلفة، نواكشوط، ٢٠٠١

_ بوبه ولد محمد نافع وآخرين، موريتانيا القديمة مختصر لإسهام الأبحاث الأركيولوجية، جامعة نواكشوط، ٢٠٠٠

_ ولد بلاه حمودي الطيب، الأركيولوجيا الموريتانية من خلال أسبار وحفريات القرن العشرين، مذكرة تخرج للحصول على رسالة الماستر في التاريخ، جامعة نواكشوط، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، قسم التاريخ والحضارة، السنة الجامعية، ٢٠١٧ – ٢٠١٨ .

الفترة الوسيطة، خاصة منها القرى والمداشر المعاصرة لاستغلال مملحة آوليل[٧]، وقد شُيدت أغلب تلك القرى على الكثبان الرملية الصفراء خوفا من أن تغمرها الفيضانات التي عادة ما كانت منطقة آفطوط الساحلي تتعرض لها"[٨] ، وخلال القرن ٥٥ ١١م ظهرت حواضر صحراوية مدفوعة بتشجيع الحركة المرابطية للتجارية الصحراوية والتحولات التي شهدتها الطرق التجارية[٩] ، وفي هذا الإطار يمكن أن نقسم الحواضر الصحراوية الموريتانية إلى جيلين (الحواضر البائدة، والحواضر الحية)، ونعني بالحواضر البائدة: تلك الحواضر المندثرة التي لم تعد مُعَمَرَة، و لم تبق إلا آثارها مثل (أودغست – كمبي صالح – آزوكَي – تينيكَي ...)، أما الحواضر الحية: فنعني بها الحواضر التي مازالت موجودة حتى اليوم بعِمارتها ومُعمِريها .

أولاً: أودغست

أودغست هي إحدى أهم الحواضر التي ظهرت في المجال المعروف اليوم باسم موريتانيا، وتوجد آثار هذه الحاضرة التاريخية قرب بئر النوداش الذي يبعد حوالي ٣٤ كلم شمال شرق مدينة تامشكط الواقعة في منطقة الحوض الشرقي[١٠] بالجمهورية الإسلامية الموريتانية، وقد اختلف الإخباريون والجغرافيون والمؤرخون العرب حول تسمية حاضرة أودغست، حيث وردت تسميتها بعدة صيغ وألفاظ مختلفة، فهذا اليعقوبي يطلق عليها غسط[١١] ، أما ابن حوقل فيذكرها بلفظة أودغست،[١٢] ، وهي التسمية التي ذكرها البكري[١٣] والإدريسي[١٤] والمراكشي[١٥]، أما ياقوت الحموي[١٦]وابن عبد الحق[١٧] فإنهما يختلفان في التسمية، حيث أطلقا عليها اسم أوذقست، أما المهلبي[١٨] فذكرها بلفظتين مختلفتين هما (

٧- مملحة آوليل: من أشهر الممالح التي عرفتها صحراء صنهاجة (موريتانيا الحالية) خلال الفترة الوسيطة، وقد ذكر ابن حوقل في كتابه صورة الأرض بأنها تبعد عن مدينة أودغست مسافة شهر، ونصف الشهر من مدينة سجلماسة، أما البكري في كتابه المُغرب فحاول التفصيل حول المملحة بالقول: إنها ليست جزيرة وإنما تقع قرب جزيرة تسمى إيوني، أنظر حول هذا الموضوع الدراسة التي أنجزها الدكتور محمد بن عميرة "معدن ملح آوليل واستغلاله في العصر الوسيط" مجلة الاتحاد العام للآثاريين العرب، العدد٩

٨ - ولد الحسين النانى، المرجع السابق، ص ٣٢٠

٩- ولد الحسين النانى، نفسه، ص ٣٢١

١٠- أنظر: محمد المحجوب ولد بيه، موريتانيا جذور وجسور، مكتبة القرنين، ١٥ – ٢١ للنشر والتوزيع، نواكشوط، ط١، ٢٠١٦، ص، ٤١

١١- أحمد بن أحمد بن أبي يعقوب بن واضح اليعقوبي، البلدان، المكتبة الحيدرية، النجف، العراق، ١٩٥٧، ص١١١

١٢- أبو القاسم محمد بن حوقل، صورة الأرض، دار صادر، بيروت، لبنان، ١٩٣٨، ج١، ص،٣٦

١٣- أبو عبد الله البكري، المسالك والمالك، دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٢، ج٢، ص، ٨٤٨

١٤- محمد بن عبد الله الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، عالم الكتب، بيروت، ١٤٠٩ه، ج١، ص،١٠٨

١٥- المراكشي، الاستبصار في عجائب الأمصار، دار الشؤون الثقافية بغداد، ١٩٨٦م، ص، ٢١٦

١٦- شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت الحموي، معجم البلدان، ط٢، دار صادر، بيروت، ١٩٩٥، ج١، ص، ٢٧٧

١٧- صفي الدين عبد المؤمن عبد الحق، مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، ط١، دار الجيل، بيروت١٩٥٤م، ج١، ص، ١٣٠

١٨- الحسن بن أحمد المهلبي العزيزي، المسالك والممالك، د.ت.ن، د.، ص٤٥

أوذغست – و أودغست) أما الحميري[١٩] فيلفظها أودغشت، والراجح من التسميات هو أودغست حسب ما ذهب إليه أغلب المؤرخين العرب، أما عن موقع أودغست فهي تقع في الشمال من غرب إفريقيا بين بلاد الملثمين وبلاد السودان، يحدها من الغرب البحر المحيط، ومن الجهة الجنوبية والشرقية بلاد السودان [٢٠] ، ومن الشمال المغرب الأقصى، وقد ذكر المؤرخون أن أودغست كانت كبيرة مليئة بالسكان، و تعود نشأة هذه الحاضرة لموقعها الإستراتيجي خاصة وقوعها بين غانة وسجلماسة حيث أهلها موقعها لتصبح سوقا للتبادل التجاري[٢١] تتداعى إليها القوافل التجارية القادمة من القيروان وسجلماسة وغانة وبلاد السودان وغيرها من المناطق المجاورة[٢٢] ، كما كانت عاصمة اقتصادية لمملكة غانا قبل أن تصبح العاصمة السياسية للقبائل الصنهاجية ومن ثم منطلقا للحركة المرابطية في طورها الحركي، قبل أن تلاحقها عوامل التراجع التي أدت في الأخير إلى انهيارها وهجرة سكانها خلال فترات لاحقة .

ثانياً: ولاتة

ظل تاريخ نشأة ولاتة مثار جدل كبير بين المؤرخين والدارسين لتاريخ الحاضرة، ولعل ما يفسر هذه الجدلية الكبيرة؛ هو غياب تأريخ مضبوط لتأسيسها [٢٣] ، وقد ورد ذكر ولاتة مع ابن بطوطة الذي زارها وقدم عنها معلومات هامة تعتبر حتى اليوم أهم المصادر المكتوبة حولها من خلال كتابه رحلة ابن بطوطة المعروف، وقد عُرفت ولاتة عبر تاريخها بعدة تسميات عبرت عن المراحل التاريخية التي مرت بها، بيرو وهي التسمية الأولى ثم إيولاتن حسب بن بطوطة[٢٤]، ثم ولاتن، وولاتة خلال فترات لاحقة، وقد قدم السعدي في كتابه تاريخ السودان معلومات هامة عن بيرو (ولاتة الأولى) بقوله: " كان التسوق في بلد بيرو وإليه يرد الرفاق من الآفاق، سكن فيه الأخيار من العلماء والصلحاء، وذو الأموال من قبيلة ومكن كل بلد من أهل مصر ووركلة وفزان وغدامس وتوات وتافلالت وفاس وسوس... ثم انتقلت العمارة شيئا فشيئا إلى تنبكتو فكانت عمارة يتنبكتو خرابا لبيرو .."[٢٥] .

أما المختار بن حامدون فيرى أن ولاتة في الأصل قرية سوننكية: " قيل أسسها سرغلات سنة١٢١٤م\ ٦١١ه

١٩- محمد بن عبد المنعم الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، ط٢، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٨٤م، ص،٦٣

٢٠- ياقوت الحموي، شهاب الدين أبي عبد الله، ياقوت بن عبد الله، معجم البلدان، ط٢ دار صادر، بيروت، ١٩٩٥م، ص، ٢٧٧

٢١- البكري، المسالك والممالك، مصدر سابق، ص، ٨٦٢

٢٢- أبو عبد الله البكري، المغرب في ذكر إفريقية والمغرب، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، د.ت.ن،ص، ١٥٨

23Jacques-Meunié (D.), Cites Ancienne De Mauritanie, Provinces Du Tagannt Et Du Hodh, Librairie C, KLINCKSIECK, Paris, 1961, p, 71

٢٤- ابن بطوطة أبو عبد الله محمد، تحفة النظار في عجائب الأسفار، وغرائب الأمصار، ج١، ط١، دار إحياء العلوم، بيروت، ١٩٨٧، ٦٨٨ وما بعدها.

- عبد الرحمن السعدي، تاريخ السودان، مطبعة بردين، ١٨٩٨، ص، ٢١٢٥

عندما تفرقوا من غانا (...)، والمحاجيب أول من سكن ولاتة من أهلها اليوم وكانت لهم الرئاسة فيها ..." [٢٦] وقد ذكر النحوي الخليل في كتابه بلاد شنقيط المنارة والرباط[٢٧] : أن ولاتة تأسست في القرن الأول الهجري، كما أضاف أن زيارة الرحالة بن بطوطة لها ذكر كانت تظهر عليها علامات الشيخوخة، ولعل هذه الإشارة من ابن بطوطة تؤكد أن الحاضرة ضاربة في القدم.

أما حماه الله ولد السالم فقد ذهب في التأصيل لنشأة ولاتة مذهبا بعيدا حين قال: " التاريخ القديم لولاتة موغل في القدم، ولذلك فإن الحقائق في شأنه قليلة، فبعض الروايات ترجع تأسيس المدينة إلى بني إسرائيل قبل الإسلام خلال القرنين ٦ و٧ للميلاد، وخلال القرن ٥ه ١١م سيطر المرابطون عليها فأضحت مدينة ولاتة القرية الصغرى آن ذاك خاضعة لنفوذهم، وفي القرن ٦ه ١٢م سقطت مملكة غانا في أيدي الصوصو ١٢٠٣م مما اضطر المسلمين بقيادة الشيخ إسماعيل إلى اللجوء إلى المدينة ليعيدوا تأسيسها على نحو فعلي حدود ١٢٢٤م بوصفها حاضرة إسلامية كبرى ومحطة متقدمة على طريق التجارة بين المغرب والسودان وبذلك ورثت ولاتة الدور التاريخي لمدينة كمبي صالح عاصمة مملكة غانا حسب ما تذكر الروايات...."[٢٨] ، ثم أصبحت بعد ذلك أهم المحطات الاقتصادية الصحراوية بالإضافة إلى مكانتها الثقافية والسياسية والاجتماعية المرموقة .

أما الناني ولد الحسين فيرى أن ولاتة تأسست منذ قرون عديدة، وكانت تعرف باسم بيرو، وكانت لها صلة وطيدة بغانا، وذلك منذ القرن ٢ه\ ٨م، ثم ما لبثت أن أصبحت تعرف باسم ولاتة وذلك من القرن ١٣م، ولكن الرأي السائد عند أهل ولاتة هو أنها تأسست قبل ظهور الإسلام قبل أن يفتتحها عقبة بن نافع في القرن ١ه\ ٧م وتذهب الروايات المحلية الولاتية أن قبر العاقب ابن عقبة يوجد بالقرب من المسجد العتيق فيها ولها باع في التاريخ القديم للمنطقة [٢٩] .

*** المكانة الاقتصادية لحاضرة ولاتة قبل التراجع**

ارتبط اسم ولاتة منذ أزمنة بعيدة بوظيفتها التجارية، كأبرز الحواضر القافلية الوسيطة في غرب الصحراء، حيث ظلت محطة تجارية ترِدها القوافل من كل حدب وصوب[٣٠] ، فكانت ملتقىً لعدة طرق تجارية نشطة، مثل (طريق السوس مراكش، وطريق تيشيت – تنبكتو – توات – فزان – الإسكندرية ...) وكانت ولاتة تشهد فترات ازدهار متباينة حسب الظروف وحسب المناخ السياسي العام في المنطقة.[٣١]

لا شك أن المكانة الاقتصادية المرموقة لحاضرة ولاتة؛ اكتسبتها من موقعها الجغرافي الذي خولها أن تكون مركزا

---

[٢٦]- ابن حامد المختار، موسوعة حياة موريتانيا (التاريخ السياسي) دار الغرب الإسلامي،ط١، ٢٠٠٠ ، ص،٦٢- ٦٣

[٢٧]- ولد النحوي الخليل، بلاد شنقيط أرض المنارة والرباط، عرض لحياة العلمية والإشعاع الثقافي والجهاد الديني من خلال الجامعات البدوية المتنقلة (المحاضر)، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس، ١٩٨٧، ص، ٦٨ - ٦٩

[٢٨]- ولد السالم حماه الله، تاريخ موريتانيا العناصر الأساسية، منشورات الزمن،٢٠٠٧ ، ص ١٦٦

[٢٩]- ولد الحسين الناني، صحراء الملثمين، المرجع السابق، ص، ٣١٩

[٣٠]- النحوي الخليل، المرجع السابق، ص، ٦٨

[٣١]- إبراهيم أحمد فال، التراث الثقافي والمعماري لمدينة ولاتة التاريخية، دار كنوز التراث للنشر والتوزيع، ط١، ٢٠٢١، ص٤٠.

للتبادل التجاري وملتقى للقوافل التجارية المحملة بمختلف أنواع البضائع القادمة من المغربين الأوسط والأقصى شمالا، ومن إفريقيا جنوب الصحراء جوبا، وقد مثلت المسالك التجارية التي تمر بولاتة جسورا للتواصل الاجتماعي والاقتصادي بين شعوب هاتين المنطقتين وصحراء صنهاجة التي ظلت ولاتة أهم مراكزها [٣٢] .

كانت التجارة القافلية العابرة للصحراء أهم العوامل والأسباب التي كان لها الدور الأكبر في تغيير النشاطات الاقتصادية للحواضر الواقعة على ممر تلك القوافل الصحراوية خلال الفترة الوسيطة، والفترات السابقة عليه،[٣٣] ومنذ القرن الخامس الهجري الحادي عشر ميلادي، وبعد ظهور الحواضر الشمال إفريقية الوسيطة؛ بدأت الصلات والعلاقات التجارية تتوطد بين الحواضر الشمال إفريقية ومملكة غانا التي كانت تبسط نفوذها على أغلب المناطق المجاورة لها، وبما أن حاضرة ولاتة كانت عبارة عن حلقة وصل بين غانة والمغرب الأقصى؛ أصبحت محطة لقوافل التجار المسلمين القادمين من المغرب الأقصى، كما مثلت ولاتة سوقا تجارية تتم فيها التبادلات التجارية التي كانت ترتكز على العديد من المواد التجارية المتنوعة مثل (الذهب – الفضة — الملح – الرقيق...) وكانت عمليات التبادل هذه معروفة في سوق ولاتة ونظيراتها من أسواق الحواضر الصحراوية والسودانية القريبة والبعيدة . [٣٤]

لقد شهد القرن ٥ه – ١١م ازدهار النشاطات التجارية في الصحراء، وهو القرن الذي شهد على ظهور العديد من الحواضر في المغرب الأوسط والأقصى، وفي أطراف الصحراء، وخلال هذه الفترة بالذات كانت العلاقة التجارية بين الحواضر الصحراوية ونظيراتها المغاربية والسودانية متينة إلى حد كبير، وبحكم وقوع ولاتة بين طرفي التبادل أصبحت بمثابة حلقة وصل بين الطرفين[٣٥] ، وكانت المبادلات التجارية في الحاضرة تقوم على (الذهب – والملح – والفضة – الفواكه – الزبيب– التين – التمور – ريش النعام – الجلود – الصمغ العربي – وبعض المواد الأخرى الكثيرة...[٣٦]، في حين كانت المواد القادمة من الجنوب في الغالب عبارة عن الذهب والرقيق [٣٧] .

أ– مقومات المكانة الاقتصادية لحاضرة ولاتة: ارتبط ازدهار ولاتة خاصة خلال عصرها الذهبي خلال القرني ١٣ه – ١٥م، بدورها كعقدة لامناص منها على طريق القوافل التجارة الصحراوية، ومن البديهي أن الازدهار الاقتصادي خلال تلك الفترة ينحصر في النشاط التجاري، وهو نشاط ناتج عن تطور الحواضر وانتشار شبكة المسالك التجارية، ومن تجليات الازدهار التجاري لولاتة، " ... تطورها الديمغرافي والعمراني الذي ارتبط هو الآخر بحركية اقتصادية في منطقة جغرافية شاسعة وحساسة ... [٣٨]

٣٢- النحوي الخليل، نفسه، ص، ٦٩

33Ly, Tall, (Madina) L'empire du Mali, Les nouvelles Édition, Africaines, Dakar. Abidjan, 1977. p.p., 60 - 62

٣٤- إبراهيم أحمد فال، المرجع السابق، ص، ٤١ وما بعدها

٣٥- ولد بيه محمد المحجوب، المرجع السابق، ص، ٤٨ – ٤٩ - ٥٠

٣٦- أنظر: حمادي الدحة، مدينة ولاتة دراسة تاريخية، مذكرة تخرج، جامعة نواكشوط، ٢٠٠٩، ص، ٢٣

٣٧- حمادي الدحة، نفس الصفحة.

٣٨- سيداتي بن بابيه، ولاتة من الحاضر إلى الماضي، طباعة سيرك، ط١، ٢٠٠٥، ص، ٢١

لقد كان للموقع الجغرافي لحاضرة ولاتة الدور الكبير في الحيوية الاقتصادية التي شهدتها الحاضرة، حيث مكنها موقعها من الربط بين المغرب الأقصى، والصحراء، وإفريقيا جنوب الصحراء، إلا أن المصادر التاريخية لم تقدم لنا معلومات وافية حول بداية الازدهار التجاري والاقتصادي لحاضرة ولاتة، غير أن أغلب الظن أنها كانت الوريثة الاقتصادية لعاصمة مملكة غانا (كمبي صالح) التي كانت تبعد عنها قرابة ١٥٠ كلم. كما استفادت ولاتة من تراجع حاضرة أودغست التي تقع معها في نفس المجال، وبالتالي فإن ولاتة قد استفادت من التنامي الاقتصادي الذي عرفته غانا وأودغست، وتطورت تلك الاستفادة بعد تراجع هاتين الحاضرتين، لتكون ولاتة رائدة تجارة الذهب في الصحراء[٣٩]، كما كان للهجرات البشرية إلى ولاتة دور كبير في الازدهار التجاري الذي عرفته الحاضرة.

إن وقوع ولاتة على الطرق المتفرعة من وإلى الصحراء كان له دور كبير في حيوية النشاط التجاري والاقتصادي في الصحراء عموما، فولاتة تتفرع منها الطرق والمسالك المتوجهة نحو تيشيت وشنقيط وودان، ثم تتفرع تلك الطرق والمسالك بعد ذلك نحو المناطق الإقليمية المجاورة، ومنها أي ولاتة تتفرع المسالك نحو الممالك الإفريقية الوثنية، ومن ولاتة كذلك؛ تتفرع الطرق الرابطة بين الصحراء وحواضر السودان الغربي مثل (تنبكتو – أروان – كل سوق ...) بل وتتواصل تلك الطرق المنطلقة من ولاتة حتى القاهرة في مصر [٤٠] .

إن ظهور مملحة تغازة خلال القرن ٥ه – ١١م كان وراء تراجع الدور التجاري للمحاور الغربية الساحلية، التي كانت تتجه نحو مملحة آوليل، وبعد تراجع هذه الأخيرة أصبحت القوافل التجارية تتجه نحو المملحة الجديدة (تغازة) وبالتالي أصبحت حاضرة ولاتة الوريث الاقتصادي الأول لحاضرة أودغست التي كانت مركزا اقتصاديا هاما في الصحراء لما كانت تعج به من الأنشطة التجارية والتبادلات بين أطرافي الصحراء، وقد خلفت هذه الأنشطة الاقتصادية "... ومن أبرز السلع المتداولة الذهب، وقد أدى تجمع ثروات ضخمة بأيدي سكان المدينة وما رافقه من نمو ديموغرافيا وتطور عمراني وبروز فئات اجتماعية جديدة، إلى خلق حاجات جديدة لاستهلاك المواد الكمالية بصفة خاصة وارتفاع أسعارها..." [٤١]

وخلال القرن ١٠ه ١٧م بدأت الحركة التجارية في الحاضرة تشهد تنظيما أكثر خاصة بعد غزو السعديين لتنبكتو[٤٢] حيث سعى السعديون إلى التحكم في مصادر الذهب في الصحراء، وتوجيهها نحو أسواقهم في الشمال، عن طريق بعض الوكلاء [٤٣] .

---

[٣٩]- محمد محمدو، ولاتة من بداية التأسيس وحتى دخول المستعمر (ق٣\ه٤\ه – العاشر والحادي عشر ميلاديين وحتى ١٣٥٣\ه ١٩١٨م)، بحث لنيل شهادة الماستر في التاريخ والحضارة، جامعة نواكشوط، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ٢٠١٤- ٢٠١٥، ص، ١٥٦

[٤٠]- محمد محمدو، نفسه، ص ١٥٧

[٤١]- سيداتي ولد بابيه، ولاتة من الحاضر إلى الماضي، المرجع السابق، ص، ٢١

[٤٢]- محمد الغربي، بداية الحكم المغربي في السودان، إشراف نيغولا زيادة، مؤسسة الخليج للطباعة والنشر والتوزيع، المكتبة الوطنية بغداد ١٩٨٢، ص، ٢٤٠

[٤٣]- محمد الغربي، بداية الحكم المغربي في السودان، نفسه، ص، ١١٧

ب- العلاقات التجارية بين ولاتة ومحيطها القريب والبعيد

كانت ولاتة أيام ازدهارها التجاري؛ تتمتع بعلاقات تجارية واسعة مع إقليمها ومع مناطق بعيدة نسبيا، وفي هذا الإطار يمكن أن نقسم نطاقات العلاقات التجارية لولاتة مع غيرها إلى النطاقات الجغرافية التالية: -

١- المغرب الأقصى والأوسط ومصر: كانت ولاتة ترتبط بهذا النطاق عن طريق شبكة من المحاور الطرقية المعقدة، والتي تمتد آلاف الكلمترات، وهذه المناطق تتمتع بإمكانات اقتصادية هامة استفادت منها الصحراء بشكل عام، وخاصة ولاتة وغيرها من الحواضر التي كانت عبارة عن وسيط تجاري بين شمال وجنوب وشرق القارة، وأهم المنتجات التجارية التي كانت تأتي عبر النطاق المغربي المصري: (النحاس - الفضة - الحبوب- الفواكه – الزبيب - القماش ...) [٤٤] .

٢- المجال الصحراوي: وهو المجال الواقع بين المغربين الأقصى والأوسط شمالا، وإفريقيا جنوب الصحراء جنوبا، وهذا المجال يتوفر على العديد من المنتجات التجارية مثل (الملح الحجري- العنبر - الصمغ العربي - جلود الماعز...).

٣- النطاق السوداني: وهي المناطق الواقعة جنوب الصحراء والتي تتميز بالكثير من المنتجات التجارية المتنوعة، وقد ظلت هذه المنطقة عبر تاريخها مصدرا لمواد تجارية هامة خاصة الذهب، وقد تميزت العلاقة بين هذه المنطقة وجوارها بما يمكن أن نطلق عليه التكامل التجاري بينها و الحواضر الصحراوية من جهة، والحواضر الشمال إفريقية من جهة أخرى، وكانت ولاتة كغيرها من حواضر المجال الصحراوي عنصرا تجاريا هاما في هذا التكامل الاقتصادي، كحلقة وصل بين هاتين المنطقتين، وأهم المنتجات التجارية التي كانت تجود بها إفريقيا جنوب الصحراء (الذهب - الرقيق - العاج...) [٤٥] .

ج- القاعدة البشرية للتجارة الولاتية: كانت قبيلة مسوفة[٤٦] متحكمة إلى حد كبير في الأنشطة الاقتصادية في حاضرة ولاتة منذ الفترة الوسيطة، حيث كان تجار مسوفة يتحكمون في البنية التجارية الولاتية، وذلك لوقوع ولاتة في مناطق نفوذهم السياسي والاجتماعي والرعوي، وذلك من مملحة تغازة حتى ولاتة [٤٧] ، وكانت المجموعات المسوفية تشرف على القوافل التجارية العابرة لمناطق نفوذها من خلال الرعاية والتأمين، وهو ما كان له انعكاس كبير على المكانة الاقتصادية للمسوفيين في ولاتة وغيرها وتحكمهم في مفاصل عملية التبادل التجاري في كل المناطق الخاضعة لنفوذهم بما في ذلك ولاتة، كما كانوا يبيعون بضائعهم للقوافل العابرة لمجالهم، ولخبرة مسوفة في المجال الصحراوي؛ كان دليل القافلة غالبا ما يكترى منهم نظرا لخبرتهم في الصحراء وقدرتهم على الاهتداء فيها وقد ذكر ابن بطوطة خبرة مسوفة في الاهتداء وتخصص بعضهم فيما يعرف بالتكشيف، يقول ابن بطوطة " ... التكشيف اسم لكل رجل من مسوفة يكتريه أهل القافلة، فيقدم إلى أيولاتن

٤٤- إبراهيم أحمد فال، المرجع السابق، ص، ٤٣

٤٥- ولد الحسين الناني، صحراء الملثمين، المرجع السابق، ص، ٢٥٢

٤٦- مسوفة إحدى أهم القبائل الصنهاجية التي كانت تحكم الصحراء، وهي تستوطن المنطقة الصحراوية من الناحية الشرقية أي المنطقة الممتدة من درعة شمالا ومنعطف النيجر جنوبا، وكانت لها سيطرة واضحة على أهم الطرق التجارية التي تمر بمجالها الجغرافي وكانت فروعها منتشرة في الصحراء.

٤٧- محمد محمدو، ولاتة من بداية التأسيس وحتى دخول المستعمر، المرجع السابق، ص، ١٨٠

يكتب الناس إلى أصحابهم بها، ليكتروا لهم الدور، ويخرجون للقائهم بالماء، مسيرة أربع ..." [٤٨] .

تعددت المصادر التي تحدثت عن التجار المسلمين والعرب الذين قدموا إلى ولاتة، وكانت نشاطاتهم التجارية مشهودة فيها، فهذا ابن بطوطة يسهب في الحديث عن ملابس أهل ولاتة التي وصفها بالحسن وأنها مصنوعة في مصر، "... وثياب أهلها حسان مصرية وأكثر السكان بها من مسوفة..."[٤٩] كما وجد في ولاتة تجار من فزان – غدامس – تلمسان ... بالإضافة إلى مجموعة من التجار الليبيين الذين عرفت تنبكتو القريبة من ولاتة تواجد جالية منهم عرفت بها أحياء معروفة، وفي ولاتة كذلك كانت هناك جاليات من التجار القادمين من تافلالت – السوس – فاس ... [٥٠]

د– المواد التجارية الصحراوية

عرفت الحواضر الصحراوية العديد من المواد التجارية التي مثلت عجلة النشاطات التجارية في المنطقة، وكان تنوع هذه المواد يعكس تنوع واختلاف طبيعة المناطق التي المستقدمة منها (المصنوعات – المنسوجات – المواد الغذائية – الجلود– الورق – النحاس – الفضة – الحديد – الملح – الذهب) وكان عنصري الذهب والملح يتحكمان في العملية التجارية في الصحراء خلال الفترة الوسيطة [٥١] كما استمر التعامل بهذه المواد في طرفي الصحراء قرونًا عديدةً، حتى أن بعضها ظل ضمن قائمة مواد التبادل الصحراوية حتى القرن السابع عشر . [٥٢]

١– المواد القادمة من الشمال نحو الجنوب: السكر، السجاد، القمح، الورق، القطن، الملابس الحريرية، الكتان، التمور، الزجاج، خرز التسابيح، المرجان، الودع، النسيج، منسوجات الحرير، منسوجات القطن، العطور، الجلود المصبوغة. [٥٣]

٢– المواد القادمة من الجنوب نحو الشمال: الذهب، الأرز، الليمون، الفضة، الدخن، البرتقال، الشعير، الحناء، القمح، الفول، الرصاص، الحمص، العاج، الزرابي، أعمدة السيوف، الأساور، الأطواق، الخناجر، الحصير، السروج، العلك. [٥٤]

ظل السودان الغربي خلال الفترة الوسيطة من أكبر مصدري الذهب إلى أوروبا وعالم البحر الأبيض المتوسط، قبل اكتشاف العالم الجديد. [٥٥]

---

[٤٨]- أنظر: ابن بطوطة المصدر السابق، ص، ٦٨٨

[٤٩]- ابن بطوطة، نفسه، ص، ٦٩٠

[٥٠]- محمد محمدو، نفسه، ص، ١٨١

[٥١]- أنظر: ابن الخطيب لسان الدين، الإحاطة في أخبار غرناطة، ج٢، الشركة المصرية للنشر، القاهرة، ١٩٧٥، ص، ١٤٣

[52] Voir; Ould Maouloud Mohamed, Tichit avant le déclin, Contribution a l'histoire d'une Cite Caravanière du Sahara Mauritanien des origines au milieu du XIX Siècle. Tome (I) Université de paris I panthéon – Sorbonne, U.F.R.09, 1998. P. 268

[٥٣]- محمد محمدو، المرجع السابق، ص، ١٧١

[٥٤]- محمد محمدو، نفسه، ص، ١٧٢

[٥٥]- محمد محمدو، نفسه، نفس الصفحة.

*** الملح والرقيق**

أما الملح فكان يستخرج من بعض الممالح الصحراوية التي منها مملحة آوليل [٥٦] التي ذكرها البكري وأكد أنها كانت خاضعة لنفوذ قبيلة كُدالة[٥٧]، وهي المملحة التي يرى بعض الباحثين أنها مملحة أنترت[٥٨] ، وبالإضافة إلى سبخة آوليل توجد مملحة الجل الواقعة في الجزء الشمالي من المنطقة المعروفة اليوم بتيرس زمور، ورغم أهمية هذه المملحة خلال الفترة الحديثة؛ إلا أنها غابت في المصادر التاريخية الوسيطة، غير ريمون موني يرى أن استغلال هذه المملحة كان خلال الفترة مابين ١٠٦٨– ١٤٥٥م، أما ولد الحسين الناني، فقد ذهب إلى أن استغلالها كان خلال القرن ١٠م قبل أن تنتزع منها آوليل مكانتها الاقتصادية، ليظل إنتاج مملحة الجل مقتصرا على المناطق الإقليمية المجاورة لها، قبل أن يتراجع احتياطي مملحة تاطنطال تغازة خلال القرن الخامس عشر ميلادي[٥٩] وكانت مملحة الجل تابعة لنفوذ قبيلة لمتونة[٦٠] الصنهاجية .

أما مملحة تغازة[٦١] فإنها تقع على بعد ١٦٠ كلم شمال غرب منطقة تاودني ويعتقد أن استخراج الملح من هذه المملحة كان خلال القرن ٨م ، وهي المملحة التي عرفها البكري باسم تاطنطال[٦٢]، وقد أسهب ابن بطوطة في الحديث عن هذه المملحة، كما أنها هي التي تسببت في تحوير الطرق التجارية من الساحل نحو الشرق[٦٣] .

وعبر تاريخ المجال الصحراوي ظل الملح من أهم السلع المستهلكة من طرف السودانيين[٦٤] ، كما كانت له أهمية كبيرة انعكست من خلال أثمانه الباهظة، حتى أن بعض السودانيين كان مستعدا لمقايضة أبنائه مقابل قدم الواحد منهم من الملح، كما ذكرت ذلك بعض المصادر.[٦٥] ، يقول ابن بطوطة: "... فيحملون منه الملح ويباع الحمل منه بأيولاتن بعشرة مثاقيل إلى ثمانية، وبمدينة مالي بثلاثين مثقالا إلى عشرين، وربما انتهى إلى أربعين مثقالا، وبالملح يَتَصارف

٥٦- أنظر: فتيحة مجبري، الحياة الاقتصادية لمملكة سنغاي الإسلامية، مذكرة للحصول على شهادة الماستر، جامعة أحمد دراية، الجزائر، السنة الجامعية،٢٠٢٠- ٢٠٢١ ص، ٥٥

٥٧- كُدالة (بكاف معجمة) من كبريات الاتحاديات القبلية الصنهاجية التي كانت منتشرة في المجال الصحراوي المعروف اليوم بموريتانيا ، وكانت هذه القبيلة تتقاسم المجال مع لمتونة ومسوفة وغيرهما من القائل الصنهاجية التي كانت تحكم المنطقة، وكانت كُدالة تاريخيا تسيطر على طول المناطق المحاذية للمحيط الأطلسي من الشمال حتى ضفاف النهر جنوبا، وكان لهذه القبيلة دور فاعل في تاريخ الحركة المرابطية .

٥٨- ولد الحسين الناني، المرجع السابق، ص. ٤٢٧

٥٩- ولد الحسين الناني، نفسه، ص، ٤٢٨

٦٠- لمتونة إحدى أهم القبائل الصنهاجية التي كانت تسيطر على صحراء صنهاجة موريتانيا الحالية، وكان نفوذ هذ القبيلة يشمل وسط الصحراء حتى منطقة النهر على حدود بلاد السودان، وهم من أسس الدولة الصنهاجية الأولى التي مهدت لقامة الحركة المرابطية التي ظهرت في كنف هذه القبيلة.

٦١- ابن بطوطة، المصدر السابق، ص، ٦٨٦ - ٦٨٧

٦٢- ولد الحسين الناني، المرجع السابق، ص، ٤٣٤

٦٣- محمد محمدو، المرجع السابق، ص، ١٧٣

٦٤- ابن بطوطة، نفسه، ص، ٦٨٧

٦٥- أنظر: أحمد الأمين الشنقيطي، الوسيط في تراجم أدباء شنقيط والكلام على تلك البلاد تحديدا وتخطيطا وعاداتهم وأخلاقهم وما يتعلق بذلك، مكتبة الخانجي، ط٥، القاهرة، ٢٠٠٢، ص ٥٢١

السودان، كما يتصارف بالذهب والفضة، يقطعونه قطعا ويتبايعون به..." [٦٦] .

وكانت عملية استخراج الملح تتم من طرف مجموعة من القبائل مثل كُدالة التي كان لها الإشراف على استخراجه من آوليل، في حين كانت لمتونة تتحكم في مملحة الجل، أما مسوفة فقد كانت تتحكم في إنتاج مملحة تغازى الواقعة ضمن مناطق نفوذها [٦٧] .

لقد كانت تجارة الرقيق ضمن مواد التبادلات التجارية في الصحراء، كما تواترت بذلك جل المصادر التي تناولت النشاطات الاقتصادية الصحراوية، وقد أورد الرحالة كادامو ستو أن التجار البيضان كانوا يسافرون من الصحراء عبر القوافل حتى تنبكتو ومملكة مالي بحثا عن الذهب والرقيق، وكانت تتم مقايضة هاتين المادتين بالخيول، كما هو الحال مع التجار القادمين من البرتغال، الذين كانوا يشترون الخيول من الضفة اليسرى للنهر الصنهاجي؛ ليقايضوها بالعبيد، وخلال مراحل أخرى تتم هذه المقايضة مع بعض الممالك الزنجية الموجودة على الضفة (غامبيا – جولف...) وكان ثمن الفرس الواحدة ثمانية عبيد، ثم تطور الأمر حتى أصبح ثمنها خمسة عشرة عبدا[٦٨]، وذكر الحسن الوزان الذي زار المنطقة بداية القرن السادس عشر ٩١٠ه – ١٥٠٥م أن ثمن الفتاة التي تبلغ من العمر خمسة عشرة سنة ستة مثاقيل، ونفس الثمن بالنسبة للفتى، ونصف الثمن بالنسبة للأطفال والمسنين، [٦٩] ، كما ذكر الوزان أن عدد الرقيق من الذكور والإناث خلال هذه الفترة لا يحصى، وهو ما يشي بمدى انتشار تجارة الرقيق خلال تلك الفترة

*** التمور والخضروات**

ذكر ابن بطوط خلال رحلته الشهير في القرن الرابع عشر وجود بعض النخل الذي كان أهل ولاتة يزرعون تحته البطيخ يقول ابن بطوطة : "... وفيها يسير نخيلات، يزرعون في ظلالها البطيخ، وماؤهم من أحساء بها..." كما نقل الباحث محمد محمدو عن الحسن الوزان وجود تمور ولاتية في الحاضرة [٧٠]، ولعل البطيخ الذي ذكر ابن بطوطة هو الذي ذكر الرحالة السينغالي علي صال خلال القرن التاسع عشر وكيف أن أهل ولاتة كانوا يزرعونه [٧١] ، وهو ما نستنتج منه أن ولاتة قد عرفت خلال مرحلة من مراحل تطورها تصدير بعض المنتجات الزراعية مثل التمور وبعض الفواكه والخضار، التي كانت تتم زراعتها تحت النخيل، مثل الدخن وغيره ...[٧٢]، وذلك قبل أن انقراض النخل من الحاضرة لأسباب لم نجد لها تفسيرا، ولعل بعض الدراسات البيئية المستقبلية قد تجد تفسيرا لانقراض النخل من ولاتة [٧٣] ، بالإضافة إلى التمور والحبوب؛

---

[٦٦]- ابن بطوطة، المصدر السابق، ص، ٦٨٧
[٦٧]- محمد محمدو، المرجع السابق، ص، ١٧٤
[٦٨]- محمد محمدو، نفسه، نفس الصفحة.
[٦٩]- أنظر: الحسن بن محمد الوزان الفاسي، وصف إفريقيا، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة، والنشر، ط٢، دار الغرب الإسلامي، بيروت ١٩٨٣، ص، ١٦٩

[٧٠]- الحسن الوزان، وصف إفريقيا، المصدر السابق ص، ١٦٣
[٧١]- بن محمذن محمدو، المجتمع البيضاني في القرن التاسع عشر، قراءة في الرحلات الاستكشافية الفرنسية، منشورات معهد الدراسات الإفريقية، الرباط، ٢٠٠١، ص، ٣٦٧
[٧٢]- الحسن الوزان، المصدر السابق، ص١٦١
[٧٣]- محمد محمدو، المرجع السابق، ص، ١٧٦

كانت اللحوم تندرج ضمن البضائع الرائجة في ولاتة، ولعل الأمر يتعلق باللحوم الطازجة والمجففة على حد سواء، وقد أشاد ابن بطوطة بكثرة لحوم الضأن في الحاضرة، وذلك بقوله: "... ولحم الضأن كثير بها ..." [٧٤] .

ه- شركة آل المقري التجارية

تأسست شركة المقري[٧٥] خلال القرن السابع الهجري الثالث عشر الميلاد، واستمرت هذه الشركة حتى نهاية النصف الأول من القرن الثامن الهجري الرابع عشر ميلادي، وقد ظهرت هذه الشركة في تلمسان، وكان نشاطها في المناطق الرابطة بين شمال إفريقيا وإفريقيا السوداء، وكانت ولاتة إحدى أهم المحطات التجارية لهذه الشركة، وقد كانت شركة آل المقري النموذج المنظم الكبير الذي عرفته التجارة الصحراوية[٧٦]، كما نالت هذه الأسرة شهرة كبيرة في الصحراء بفعل أعمالها التجارية الكبيرة، يقول عنها بن الخطيب: "... فمهدوا طريق الصحراء بحفر الآبار، وتأمين التجار، واتخذوا طبل الرحيل ورواية التقدم عند المسير..."[٧٧] وهذه هي الجهود التي بذلتها شركة آل المقري لتحظى بتلك المكانة الاقتصادية المرموقة (تمهيد الطريق – حفر الآبار – تأمين القوافل التجارية...) ومما كرس نفوذ القائمين على هذه الشركة؛ هو العلاقة الطيبة التي ربطتهم بالسُلط السياسية التي القائمة على أطراف الصحراء وفي شمال إفريقيا وجنوبها . [٧٨]

ذكر ابن الخطيب أن أفراد الشركة من عائلة واحدة وعددهم خمسة رجال، وكانوا مقسمين على المناطق التي توجد بها مراكز للشركة، وهي طريق تلمسان مالي – سجلماسة ولاتة ... والشركاء هم: (أبوبكر– محمد – عبد الرحمن – عبد الواحد – علي)، وكان أبو بكر ومحمد في تلمسان، أما عبد الرحمن وهو الشقيق الأكبر للإخوة فكان مستقرا في سجلماسة، بالإضافة إلى عبد الواحد وعلي وكانا يسكنان في ولاتة [٧٩] ، وهو ما نرى أنه دليل على الأهمية التجارية لولاتة عند آل المقري لكونها البوابة التجارية للشركة على إفريقيا جنوب الصحراء. [٨٠]

يمكن اعتبار شركة آل المقري أحسن مثالٍ على المكانة الاقتصادية الرائدة التي تميزت بها حاضرة ولاتة، حيث كان لهذه الشركة نفوذ كبير على التجارة والنشاطات التجارية في المنطقة خلال القرن الثامن هجري، وكما لاحظنا سابقا فإن ملكية هذه الشركة كانت تعود لخمسة أشقاء من عائلة

٧٤- ابن بطوطة، المصدر السابق، ص، ٦٩٠

٧٥- تنتسب هذه الأسرة إلى الشيخ علي بن داوود المقري القرشي، وقد أخذت هذه الأسرة تسميتها من المنطقة التي كانت تقطنها وهي بلدة مقرة الواقعة في إقليم الزاب التي نزل بها جد هذه الأسرة قادما من المشرق الإسلامي وتحديدا شبه الجزيرة العربية حسب ما تذكر المصادر، وتقع مقرة اليوم جنوب مدينة سطيف الجزائرية، وخلال نهاية القرن ٦ه – ١٢م انتقل عبد الرحمن بن أبي بكر بن علي القرشي إلى مدينة تلمسان، أما بخصوص تأسيس الشركة التجارية لأسرة آل المقري فيعود إلى بداية القرن ٧ه – ١٣م وهي الفترة التي شهدت على حقبة كمن الرخاء الاقتصادي والتجاري في المغرب الأوسط بشكل عام ومدينة تلمسان بشكل خاص، وهي فترة حكم بني زيان للمغرب الأوسط الذين كانوا يدركون أهمية تنشيط الحركة التجارية لما تدره من موارد مالية هامة ولما تساهم به من حيوية اقتصادية كبيرة .

٧٦- محمد محمدو، نفسه، ص، ١٨١

٧٧- أنظر: ابن الخطيب لسان الدين، مصدر سابق، ص، ١٩٢

٧٨- محمد محمدو، نفسه، ص، ١٨٢

٧٩- محمد محمدو، نفسه ونفس الصفحة

٨٠- النحوي الخليل، المرجع السابق، ص٩٥

واحدة، وكان لها تمثيل في أقاليم مختلفة من الصحراء، وغيرها مثل (ولاتة – سجلماسة – تلمسان ...) كما كانت تتبع للشركة عدة وكالات تجارية يرأس كل واحدة منها فرد أو فردين من نفس العائلة، ولعل الذي ساهم في تمكن هذه الشركة من الخيوط الناظمة والرابطة بين شبكات التبادل التجاري في الصحراء وأحوازها؛ هو أن مؤسسوها كانوا يتمتعون بعلاقات حسنة مع قبائل الصحراء وملوك السودان، وهو ما ضمن لها الاستمرار والتفوق، وخولها مكانة اقتصادية مرموقة في ولاتة وفي الصحراء عامة . [٨١]

وخلال الفترة الحديثة قدم الرحالة الأوروبيون الكثير من المعلومات الهامة المتعلقة بالنشاطات الاقتصادية في الصحراء عامة وفي الحواضر الصحراوية بشكل خاص، كما هو الحال بالنسبة لولاتة، ورغم أن الشهادات التي قدمها هؤلاء الرحالة عن اقتصاد المنطقة تعتبر متأخرة مقارنة بتاريخ المجال، إلا أنها أفادت في التعريف بالمواد التجارية التي كانت تتم مقايضتها مع تجار أطراف الصحراء، كما عبرت عن المكانة الاقتصادية للحواضر الصحراوية، خاصة ولاتة واهتمت هذه الشهادات بتغطية النشاط الاقتصادي من حيث البضائع وحجم التبادل، والمجموعات البشرية الفاعلة في هذا النشاط الاقتصادي، كما اهتموا بالذهب الذي يبدو أنه كان جاذبا أساسيا للتجار .

فهذا علي صال يؤكد أن موقع ولاتة الإستراتيجي؛ خولها أن تكون محورا للتبادلات التجارية في المنطقة، حيث مثلت ولاتة وأروان أهم محطات التبادل التجاري التي يتم فيهما تبادل أهم منتوجات شمال إفريقيا، وإفريقيا جنوب الصحراء، وفي حديث علي صال عن التبادل التجاري بين الشمال والجنوب وداخل الصحراء، ذكر أن تكنة وأولاد بسباع و تجكانت، كانوا يجذبون البضائع من وادي نون ومن المدن الشمال إفريقية شمالا، بما في ذلك بعض البضائع الأوروبية لتتم مقايضتها في ولاتة وأروان بالمنتجات الصحراوية والسودانية (الذهب – ريش النعام ...) كما عدد هذا الرحالة القبائل الصحراوية التي كانت تشارك في عملية التبادل هذه، وهذه القبائل هي: (أولاد علوش – أهل بوردة – أهل الطالب مصطف . [٨٢]

وفي إطار الحديث عن العلاقات التجارية بين ولاتة ومحيطها الإقليمي؛ ذكر الرحالة علي صال أنه رافق قافلة ولاتية لمجموعة من تجكانت و مجموعة من أولاد علوش متجهة إلى أروان، قدرها بألف جمل [٨٣] ، وفي نفس السياق قدم المستكشف بلانشي معلومات تفيد بأن سكان ولاتة وتيشيت يجلبون الرقيق والذهب والفضة إلى منطقة آدرار لتتم عملية المقايضة بمادة الملح، التي كانت غالية الثمن[٨٤] ، وكان أهل بوردة يصطادون الغزلان ويجففون لحومها ويحملونها إلى ولاتة كبضاعة جاهزة للاستعمال داخليا وقابلة للتصدير.[٨٥]، كما كان تجار من تيشيت و إدوعلي آدرار؛ يجلبون الملح وبضائع مختلفة إلى ولاتة لتتم مقايضتها بالذرة البيضاء والدخن وغير ذلك من المواد الولاتية . [٨٦]

---

[٨١]- إبراهيم أحمد فال، المرجع السابق، ص، ٤٦- ٤٧
[٨٢]- محمدو محمذن، المرجع السابق، ص، ٣٥٠
[٨٣]- محمدو محمذن، نفسه، ص ٣٥٣
[٨٤]- نفسه، ص، ٣٥٣
[٨٥]- نفسه، ص، ٣٥٤
[٨٦]- محمد محمدو، المرجع السابق، ص، ١٧٩

*** الخاتمة**

انطلاقا مما سبق نكون قد حاولنا إبراز المكانة الاقتصادية والثقافية للحواضر الصحراوية الموريتانية، من خلال نموذج ولاتة، حيث تعرفنا على المكانة الاقتصادية لولاتة، انطلاقا من محاولة التعرف على مقومات القوة الاقتصادية لهذه الحاضرة الصحراوية، وعلاقة هذه المكانة الاقتصادية بالمكانة الثقافية، وقد لاحظنا أن الدور الاقتصادي والثقافي اللّذين عرفت بهما ولاتة؛ يعتبران أهم المظاهر التي عبرت عن تطور الحاضرة وازدهارها؛ قبل أن تدخل في مرحلة التضعضع والركود والتراجع، وانطلاقا مما سبق يمكن الخروج بالملاحظات التالية: -

١- أن الموقع الجغرافي والإستراتيجي للحواضر الصحراوية الموريتانية كان أهم المقومات التي كانت وراء ازدهارها وهو ما، خول أهل الصحراء (سكان الحواضر) أن يكونوا وسطاء أساسيين في عمليات التبادل التجاري بين ضفتي الصحراء.

٢- أن العوامل التي ساهمت في المكانة الاقتصادية والثقافية لحاضرة ولاتة، هي نفسها العوامل التي ساهمت في المكانة السامقة التي اضطلعت بها ودان وتيشيت وشنقيط والحواضر التي سبقتها، وكان تشابه عوامل التطور العلمي والثقافي والاقتصادي منبئا بتشابه عوامل التراجع خلال مراحل لاحقة.

٣- أن الازدهار الثقافي والاجتماعي لحاضرة ولاتة، كان مرتبطا إلى حد كبير بالأنشطة الاقتصادية لسكان الحاضرة، وذلك لأن النشاط الثقافي والاجتماعي الذي ميزها خلال فترة الازدهار؛ ليس إلا تجليا من تجليات تركز الثروة وبالتالي الرخاء الاقتصادي، وكانت القوافل التجارية المَعبر الذي عبَرت من خلاله الثقافة الإسلامية والعربية نحو المنطقة وساهمت في التلاقح الثقافي بين المجال الصحراوي من جهة وشمال إفريقيا وجنوبها من جهة أخرى.

٤- أنه " إن كانت المصادر التاريخية لم تقدم لنا معلومات وافية عن بداية أوج الازدهار التجاري والاقتصادي لحاضرة ولاتة؛ إلا أن أغلب الظن أنها كانت الوريثة الاقتصادية لمملكة غانا التي لم تكن تبعد عنها سوى ١٥٠ كلم (...)، كما استفادت ولاتة كذلك من تراجع حاضرة أودغست، التي تقع معها في نفس المجال، وبالتالي فإن ولاتة قد استفادت من التنامي الاقتصادي الذي عرفته غانا وأودغست، ثم تطورت تلك الاستفادة بعد تراجعهما، لتكون ولاتة رائدة تجارة الذهب في الصحراء..."

*** المراجع**

اولاً- المراجع العربية

ابن الفقيه أحمد بن محمد أبي بكر، مختصر كتاب البلدان، دار الصادر، بيروت، ١٣٠٣ه

اليعقوبي أحمد بن أحمد بن أبي يعقوب، كتاب البلدان، منشورات المكتبة الحيدرية، النجف، ١٩٥٧

البكري، أبوعبيد، المُغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرِب، المطبعة الحكومية، الجزائر، ١٨٥٧

الوزان الحسن (ليون الإفريقي) وصف إفريقيا، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، بيروت، ج١، ١٩٨٣

السعدي عبد الرحمن، تاريخ السودان، مطبعة هوداس، باريس، ١٩٨١

ابن الأثير أبو الحسن علي ابن أبي الكرم، الكامل في التاريخ، دار الفكر، بيروت، (ج٨)، ١٩٧٨

الفاسي ابن أبي زرع علي، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ فاس، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، ١٩٧٣

صفي الدين عبد المؤمن بن عبد الحق البغدادي، مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، ج١، ط١، دار الجيل، بيروت١٩٥٤م

ابن عبد الحكم عبد الرحمن، فتوح إفريقية والأندلس، دار الكتاب البناني، بيروت، ١٩٦٤

ابن خلدون، عبد الرحمن، العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، تحقيق خليل شحاده، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ٢٠٠٩

ابن- الخطيب لسان الدين، الإحاطة في أخبار غرناطة، ج٢، الشركة المصرية للنشر، القاهرة، ١٩٧٥.

ابن بطوطة أبو عبد الله محمد، تحفة النظار في عجائب الأسفار، وغرائب الأمصار، ج١، ط١، دار إحياء العلوم، بيروت، ١٩٨٧.

ابن حوقل محمد أبو القاسم النصيبي، صورة الأرض، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٧٩.

الحميري محمد بن عبد المنعم، الروض المعطار في خبر الأقطار، ط٢، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٨٤م

الدمشقي شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي طالب الأنصاري، نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، دار إحياء التراث العربي، ط١، بيروت، ١٩٨٨.

المراكشي، الاستبصار في عجائب الأمصار، دار الشؤون الثقافية بغداد، ١٩٨٦م

الحموي ياقوت شهاب الدين أبي عبد الله، معجم البلدان، ط٢، ج١، دار صادر، بيروت،١٩٩٥

إبراهيم أحمد فال، التراث الثقافي والمعماري لمدينة ولاتة التاريخية، دار كنوز التراث للنشر والتوزيع، ط١، ٢٠٢١

أحمد الأمين الشنقيطي، الوسيط في تراجم أدباء شنقيط والكلام على تلك البلاد تحديدا وتخطيطا وعاداتهم وأخلاقهم وما يتعلق بذلك، مكتبة الخانجي، ط٥، القاهرة، ٢٠٠٢

أحمد محمد يحيى الولاتي، فهرسة مكتبة مخطوطات النعمة وولاتة، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، لندن، ٢٠٠٣

ولد أيده أحمد مولود، مدن موريتانيا الوسيطة، بحث لنيل شهادة الدراسات المعمقة في الآثار والتراث، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة تونس، ٢٠٠١

ولد محمد نافع بوبه وآخرين، موريتانيا القديمة مختصر لإسهام الأبحاث الأركيولوجية، جامعة نواكشوط، ٢٠٠٠

ولد محمد نافع بوبه وفيرني، الأركيولوجيا الموريتانية في متحف نواكشوط، هيئات مختلفة، نواكشوط، ٢٠٠١

حمادي الدحة، مدينة ولاتة دراسة تاريخية، مذكرة تخرج، جامعة نواكشوط، ٢٠٠٩

روبير فيرني وآخرين، "الأركيولوجيا في إفريقيا الغربية الصحراء والساحل" ترجمة ولد محمد نافع بوبه، جامعة نواكشوط، ٢٠٠٢.

فتيحة مجبري، الحياة الاقتصادية لمملكة سنغاي الإسلامية، مذكرة للحصول على شهادة الماستر، جامعة أحمد دراية، الجزائر، السنة الجامعية،٢٠٢٠ – ٢٠٢١

محمد الغربي، بداية الحكم المغربي في السودان، إشراف نيغولا زيادة، مؤسسة الخليج للطباعة والنشر والتوزيع، المكتبة الوطنية بغداد ١٩٨٢

بن بابيه سيداتي، ولاتة من الحاضر إلى الماضي، طباعة سيرك، ط١، ٢٠٠٥

ولد بيه محمد المحجوب، موريتانيا جذور وجسور، مكتبة القرنين، ١٥ – ٢١ للنشر والتوزيع، نواكشوط، ط١، ٢٠١٦

محمد محمدو، ولاتة من بداية التأسيس وحتى دخول المستعمر (ق٣ه\٥٤ه – العاشر والحادي عشر ميلاديين وحتى ١٣٥٣ه\ ١٩١٨م)، بحث لنيل شهادة الماستر في التاريخ والحضارة، جامعة نواكشوط، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ٢٠١٤- ٢٠١٥

ولد الحسين الناني، صحراء الملثمين، دراسة لتاريخ موريتانيا وتفاعلها مع محيطها الإقليمي خلال العصر الوسيط، منتصف القرن ٢ه\٨م إلى نهاية القرن ٥ه\١١م، دار المدار الإسلامي، ط١، بيروت، لبنان، ٢٠٠٧

ولد السالم حماه الله، تاريخ موريتانيا العناصر الأساسية، منشورات الزمن،٢٠٠٧

النحوي الخليل، بلاد شنقيط أرض المنارة والرباط، عرض الحياة العلمية والإشعاع الثقافي والجهاد الديني من خلال الجامعات البدوية المتنقلة (المحاضر)، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس، ١٩٨٧

ولد بلاه حمودي الطيب، الأركيولوجيا الموريتانية من خلال أسبار وحفريات القرن العشرين، مذكرة تخرج للحصول على رسالة الماستر في التاريخ، جامعة نواكشوط، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، قسم التاريخ والحضارة، السنة الجامعية، ٢٠١٧ – ٢٠١٨.

ثانياً– المراجع الأجنبية

Jacques-Meunié (D.), Cites Ancienne De Mauritanie, Provinces Du Tagannt Et Du Hodh, Librairie C, KLINCKSIECK, Paris, 1961

Lhote (H.) , "le cheval et le chameau dans le peintures et gravires rupestres du sahara " In: Bulltin de l'institut fraçais de l'afrique noire,N° 15, 1953, pp. 1138-1228.

Ly, Tall, (Madina) L'empire du Mali, Les nouvelles Édition, Africaines, Dakar. Abidjan, 1977. P.p. 60 – 62

Mohamed ould Khattar, Préhistoire Du Sud-est Mauritanien, Le Dhar

Tagant, Dossiers et Recherches, sur l'Afrique, NO2

Ould Maouloud Mohamed, Tichit avant le déclin, Contribution a l'histoire d'une Cite Caravanière du Sahara Mauritanien des origines au milieu du XIX Siècle. Tome (I) Université de paris I panthéon – Sorbonne, U.F.R.09, 199.